فى التربية

كيف ننتفع بقوانين الوراثة؟

للأستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم وكلية أصول الدين

تبين لنا مما سبق(١) معنى الوراثة ، وفهمنا قوانينها ، وعرفنا الصفات التى تنتقل بها من الأصل إلى الفرع ، والصفات التى لا تنتقل ، وظهر لنا أن الاستعدادات والملكات تنتقل باعتبارها ملكات عامة ، وأن الصفات المكتسبة لا تنتقل كما هى؛ والآن نريد أن نعرف الواجب علينا عمله للاستفادة من هذه الأول ، وإلا كان بحثنا فيها خطأ ، وإنفاق الوقت فى معرفتها من العبث الذى لا طائل تحته .

وربما يظهر لك بادىء ذى بدء أنه من العبث أن نحاول أن نعمل شيئا ، وأن نعرض أنفسنا لذلك التيار الخطر : تيار الوراثة الذى لا يبقى ولا يذر ، ولا يمنعه من السير فى طريقه مانع ولا يصده عن غرضه صاد ، فالأمور الوراثية لا يمكن تغييرها ، والصفات التى تنتقل بالوراثة تنتقل ـ ولا بد ـ من الأصل إلى الفرع ، رغم أنف من يريد منعها ، فليس من الحزم إذن التعرض لها . أما الصفات المكتسبة فليست بوراثية ، وإننا لو حاولنا معها حاولنا لا يمكننا أن نجعلها بحيث تنتقل من الأصل إلى الفرع بطريق الوراثة، لأنا قد قلنا إن ذلك لا يحصل ولن يحصل .

وإذا لم يكن من الممكن منع الصفات الوراثية من أن تنتقل من الأصل إلى الفرع ، ولا جعل الصفات المكتسبة وراثية ، أصبح من غير الممكن أن نعمل عملا فى هذا الباب ، وصارت التربية إذن عديمة الفائدة ، وأصبحت المساعى التى يبذلها المصلحون الاجتماعيون مساعى باطلة كاذبة لا قيمة لها ، فالوراثة قد حددت مستقبل النوع الانسانى كما حددت ماضيه ، فما علينا إلا أن نقف مكتوفى الأيدى وننظر إلى قوانين الوراثة تعمل عملها بدون أن نحرك ساكنا فى سبيل التدخل فى شأنها .

وهذا القول له نصيبه من الصحة ، ولكنا لو أنعمنا النظر ، وتعمقنا فى البحث ، وأحطنا

(١) راجع الجزء العاشر من هذه المجلة: شهر فبراير سنة ١٩٣٢ .

بتاريخ النوع الانسانى ، وتتبعنا أطواره التى تطورها حتى وصل إلى الحال التى هو عليها ، لرأينا أنه من الممكن الانتفاع بقوانين الوراثة التى ذكرناها من وجوه عدة .

نعم إن الانسان نهج منهج الوراثة فى تطوره ، واتبع قوانينها فى جميع أدوار حياته ، ولم نعلم أنه خرج عليها ، أو شذ عن قاعدة من قواعدها ، ولكننا مع ذلك سواء إعترفنا بمذهب النشوء أم لم نعترف به ، نرى أن النوع الانسانى فى تقدم مستمر ، ورقى مطرد ، من يوم أن ظهر على سطح هذا الكوكب الأرضى حتى عصرنا هذا ، وأن تقدمه هذا ، وانتقاله من حياة بسيطة ساذجة ، إلى حياة معقدة ملتوية الأطراف ، متشعبة النواحى ، لم يكن راجعا إلى تحكمه فى شؤونه الوراثية أو إلى سعيه فى إصلاح نفسه ؛ ولكنه سلك فى ذلك مسلكا سلبيا ، فكان تقدمه بطبيعته الميالة إلى الرقى ، النزاعة الى الرفعة .

وإذا كان النوع الانسانى قد تقدم هذا التقدم بطرق طبيعية ، وعلى حسب قواعد فطرية طبع عليها ، فهل لنا أن نفكر فى إمكان مساعدته فى ذلك الرقى بالتدخل فى شأنه تدخلا فعليا معقولا من طريق الوراثة ؟

وإذا ساغ لنا أن نتدخل فى شؤون الحيوانات العليا غير الانسان تدخلا أدى إلى تحسين أنواعها ، وتغيير ألوانها ، وتقوية شأنها ، أفلا يسوغ لنا أن نقوم بمثل هذه التجاريب مع النوع الانسانى كى نقومه ، ونصلح من شأنه ، ونعلى منزلة نسله ؟

وإذا كنا نرى أن الوراثة تعمل عملها الحسن فى بعض الأسرات ، فتعلى شأنها ، وترفع منزلتها الجسمية والعقلية والخلقية ، بينما هى تتسلط على أسرات أخرى فتضعفها إضعافا وتحط من منزلتها وتهوى بها إلى حيث تكون خطرا على المجتمع الانسانى ، فلماذا لا نحرك ساكنا ؟ وحتام نترك هذه المشاهدات تمر بدون أن ننتفع بها ؟

أليس من الواجب ـ والحال كما نرى ـ أن نبحث عن أسباب تحسن النسل فنتبعها ونكثر من الانتفاع بها ، وعن أسباب تدهوره فنتجنبها ، ونعمل على التخلص منها ؟

وإذا صح أن أسباب التقدم تؤدى دائما إلى نتائج حسنة ، وأن أسباب التأخر تنتج نتائج سيئة ، وأن هذا وذاك حاصل أمام أعيننا بدون تدخلنا ، وبدون إرادتنا ، وبطرق طبيعية ساذجة يعوزها التنظيم ، وينقصها حسن القيادة ، تبين لنا أنه من الواجب علينا تنظيمها وقيادتها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحكيم إرادتنا فيها ، كما حكمناها فى فصائل النبات فقويناها ، وحسنا إنتاجها ، وفى أنواع الحيوانات والطيور فقويناها ، وحسنا نسلها .

فما لا نزاع فيه أنه من الممكن أن يكون للارادة البشرية دخل كبير فى تحسين النوع الانسانى ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون رغم أنف الطبيعة ، بل لابد أن يكون على حسب قواعد الوراثة ، وقوانين الفطرة .

فنحن إذا اقترحنا تحسين النوع الانسانى على العموم ، وتحسين أحوال شعبنا على الخصوص، فاننا إنما نقترح ذلك معتمدين على قوانين الطبيعة ، وقواعد الفطرة التى فطرنا عليها ؛ وإنما نقترح تحسين الفرع الانسانى بالطرق الوراثية ، لأن ذلك من الواجب علينا ، لأننا إذا كنا نعد أنفسنا آثار آبائنا ، وأجدادنا ، وأكبادهم التى تمشى على الأرض ، فسيأتى جيل من الأجيال يخلفنا ، ويكون هو آثارنا ، وأكبادنا تمشى على الأرض أيضا ، فمن الواجب علينا الآن أن نفكر فى صالح هذا الجيل الذى سيأتى على إثرنا ، وأن نقسح المجال لارادتنا ، لتعمل على ترقية أعقابنا ، وتحسين أحوال أخلافنا . وكيف يمكن تحسين النسل ؟

الجواب: من جهات متعددة أوردها عليك .

١ — الوراثة والزواج :

مسألة الزواج مشكلة من اكبر المشاكل الاجتماعية التى حارت عقول الفلاسفة فى حلها ، وجرت اقلام الكتاب فى جميع الممالك فى سبيل الوصول إلى تعرف معمياتها وحل رموزها ، وإنما نشأت هذه المشكلة من صعوبة الجمع بين سعادة الزوجين ، وسعادة المجتمع ، وتقدم النوع الانسانى ، فكل زواج لايؤدى إلى هذه السعادة الفردية والاجتماعية يعتبر ناقصا يستدعى التضحية أو فقد الحرية الفردية او نقصها او انقراض النوع الانسانى او ضعفه .

وليس هناك من لا يقول بوجوب اختيار الزوجة لزوجها او الزوج لزوجته ، ولكن الناس يختلفون فى أساس ذلك الاختيار ، فلكل فيه وجهة ، قد تكون مالية ، وقد تكون اجتماعية ، أوقد تكون راجعة إلى العاطفة والشعور .

ولكن قانون الوارثة يوجب علينا الاختيار من الناحية الصحية ، فهو يحتم على الزوج قبل أن يخطو خطوة فى سبيل الزواج، أن يكون واثقا من صحته وصلاحيته لأن يكون ابا أولا، ثم يشرع فى اختيار زوجة له بعد ذلك بحيث تكون تلك الزوجة مثله صالحة لأن تكون أما ، أى انه من الواجب ان يكون الزوجان قويين قادرين فى حالة صحية من الوجهة الجسمانية والعقلية والخلقية .

ذلك لما قدمناه لك، من أن الانسان يرث عن أبويه المباشرين مايقرب من نصف صفاته الجسمية التى تتبعها الصفات العقلية ، فالأبوان القويان يزيدان فى قوة نسلهما، والضعيفان لا يلدان إلا ضعيفا مثلهما ، فان العصا من العصية، ولا تلد الحية إلا الحية .

هذا أمر لاينازع فيه العقل ، وقد أتى الشرع بما يعضده ، ألم يخاطب سيدنا نوح ربه بقوله : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »؟ ألم ينقل عن النبى أنه قال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »

وأنه قال : « إياكم وخضراء الدمن » قالوا « وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ » قال: « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » ؟

فقاعدة اختيار الزوج قاعدة أساسية ، شاهد آثارها من قبلنا ، ونحن نرى آثارها الآن ، فمن الواجب أن يعلمها أبناؤنا ، وأن يعملوا بها .

ولا ينبغى لنا أن نهمل هذه القاعدة اعتمادا على التربية والبيئة ، فالتربية لا توجد المستحيل ، والبيئة لا يمكنها أن تخرج رجالا متساوين فى المقدرة العقلية ، إذا بدأوا معيشتهم فيها وهم أطفال متفاوتون فى استعداداتهم ، والمدرسة لا يمكنها أن تحدث أى تغيير فى مقدرة الطفل ، ولكن يمكنها أن تخرج تلك المقدرة من القوة إلى الفعل ، وأقصى ما يمكنها أن تبرز تلك المقدرة إلى أقصى حد ممكن ، فكما أنه لا يمكن للناطور أن يخرج من الشوك وردا ، أو من الزيتون مشمشا ، ولا للزارع أن يستخرج من الشعير قمحا او من القطن تيلا ، كذلك لا يمكن للمربى أن يخرج من العقلية الناقصة بالوراثة عقلية كاملة بالتربية .

ولكن ليلاحظ دائما ، أن النقص الذى لا يمكن للتربية إصلاحه هو النقص الوراثى الذى يرجع إلى نقص فى تكوين الانسان ، وعلى الأخص فى تركيب المجموعة العصبية ، فمسؤولية الآباء حينئذ أكبر من مسؤولية المربين ، والوراثة مسؤولة أكثر من التربية عما فى هذا المجتمع من النقص فى الخلق والخلق ، فالمربى كالتاجر الذى عنده رأس مال ينميه ويثمره بأحسن الوسائل الممكنة ، فقل لى ماذا يفعل التاجر إذا لم يكن عنده رأس مال ؟ ورأس مال المربى هو الاستعداد الذى يأتى به الطفل إلى المدرسة ، فعليه أن ينميه ويثمره إلى أقصى حد ممكن ، وليس فى مقدوره أن يزيده .

فعلى كل من يريد الزواج حينئذ أن يفكر ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على هذا العمل الاجتماعى الخطير ، وعليه أن يقدر رجله قبل الخطو موضعها كما يقول الشاعر العربى ، وعليه أن يتعلم كيف يمشى قبل أن يتعلم كيف يطير كما يقول الانجليز .

وإنى أنصح لشبابنا ألا يعتمدوا كثيرا على ذلك الشىء الذى يسمونه عشقا أو حبا ، وليس هو بالعشق ولا بالحب فى كثير من الأحيان ، بل هو عاطفة عمياء ، ومرض اجتماعى أصابتنا به الحضارة الأوربية الزائفة ، وليس معنى ذلك أن يتزوج المرء ضد إرادته ، ورغم أنف عاطفته ، ولكن معناه ألا يسلس القياد للعاطفة ، وألا يجعلها المقياس الوحيد الذى يقيس به السعادة الأبدية ، فالرابطة الغرامية قبل الزواج لا تكفى لأن يكون الزوجان سعيدين بعده ، فكم من آلاف غرتهم هذه العاطفة ، وظنوها تفضى بهم إلى النعيم الدائم ، والفردوس الخالد ، فاذا بها تنتهى بهم إلى الشقاء المقيم والعذاب الأليم ، فهبوا من سباتهم ، واستيقظوا من غفلتهم فندموا على ما فرط منهم حيث لا ينفع الندم ؛ وكم من آلاف آخرين تزوجوا على غير علم تام بأحوال من

تزوجوا ، وما هو إلا عام أو أكثر حتى تعرف بعضهم أخلاق بعض ومشاربه ورغباته ، فعاشوا عيشة هنيئة ، وتمتعوا بسعادة يحسدهم عليها من غرتهم تلك العاطفة المشؤومة .

فالاختيار المبنى على المنزلة الصحية مع شيء من الميل الطبيعى أسلم من الاختيار المبنى على العاطفة المجردة ، على أنه لا مانع يمنع من تمكنت بينهما علائق المحبة أن يتزوجا على شريطة أن يكونا صالحين للزواج ؛ ولقد فطن بعض الأوربيين لهذا الأمر ، وشعروا بالواجب عليهم نحو المجتمع من هذه الوجهة فأخذوا على أنفسهم ألا يتزوجوا إلا إذا عرضوا أنفسهم على الأطباء ، كى يحصلوا على شهادات تشهد بجودة صحتهم وصلاحيتهم للزواج .

ولا يفهم من وجوب الاختيار وجوب اختلاط الزوجين قبل الزواج كما يفعل الناس فى معظم البلاد الأوربية ، فان هذا ليس من الضرورى ، إذ من الممكن تعرف أحوال الزوج أو الزوجة الصحية بطريقة مشروعة ، ويخيل إلى ان الشارع لم يحل للرجل ان يرى وجه زوجته المستقبلة ويديها ليتعرف مقدار جمالها فقط ، ولكن ليعرف أحوالها الصحية أيضا .

وعندى أنه من الأسلم تعرف أحوال الزوجة وهى فى حالتها الطبيعية ، فان ذلك أبعد عن الريبة ، وأنفى للشك ، وأقرب إلى معرفة الحقيقة من اختلاط الرجل بالمرأة قبل الزواج بالطريقة المتبعة فى أوروبا التى يجد التظاهر والتصنع فيها مجالا واسعا ، فحياة الزوجين قبل الزواج ومعاملة كل منهم للآخر فى ذلك الوقت لا تعتبر بحال من الأحوال مقياسا للحياة بعد الزواج ؟

حامد عبد القادر

المحاورات السقراطية

(بقية المنشور على الصفحة ١٣٥٥)

ونحن الآن إنما نختلف عن الأثينيين فقط إذا كنا نعتقد ما اعتقده افلاطون ، أى إذا قلنا كما قال : إن قواعد الحياة والمجتمع لا تفهم ولا توضح بنفس الأساليب التى يحتاج إليها فى حل المسألة الرياضية ، ومع ان الحياة قد تكون اعمق مما تستطيع قوانا توضيحه ، فان إدراك غايات الحياة ، والقوة القادرة على رؤية الحياة وفهم معناها ليست مضادة للعقل ، ولكنها تتطلب أسمى تمرين له ؟

ابراهيم عبد الحميد زكى